الانتقال إلى نجد :

شارع من شوارع الرياض سنة ١٣٦٦ هـ

في عام ١٣٦٦ هـ أنشأ الملك « عبد العزيز آل سعود » أولَ مدرسة نظامية في الرياض ؛ سُمِّيت « مدرسةَ الرياض السعوديةَ للأيتام » ؛ وأمر الملك ابنَه ونائبَه على الحجاز الأمير « فيصل » بأن يرسل له ستةً من المدرسين الممتازين ؛ ليؤسسوا هذه المدرسةَ ويباشروا التدريسَ فيها ، وتم اختيارهم من قبل مديرية المعارف بمكة ؛ وكان منهم والدنا الشيخ « عبد الفتاح » ، وكان على رأسهم الشيخ « عبد المالك الطرابلسي » ..

ولما بُلِّغُوا بذلك وأنه لا خيار لهم إلا القبول ، اجتمعوا في بيت الشيخ « عبد المالك » مهمومين مغمومين ، قد غلب عليهم الحزنُ لفراق مكة ، والتهيُّبُ من الذهاب إلى « نجد » .

وسافروا جميعًا إلى « الرياض » ووصلوا إليها في وقت واحد ؛ وأخذ الشيخ « عبد الفتاح » معه زوجتَه وابنَه الرضيع « عبدَ العزيز » ، وسكن الجميع بجوار مبنى المدرسة في بيوت متجاورة ، وسكن الشيخ « عبد المالك » مع أهله ، والشيخ « عبد الفتاح » مع زوجته وولده في بيتين متلاصقين .

وكان الملك قد أفرَدَ للمدرسة مبنًى قريبًا من قصره في « المُرَبَّع » .

ومما يلفت النظر هنا أن المدرسة بدأت بمائةٍ وأربعين يتيمًا ، كان يُنفَق عليهم من القصر ، وبستةِ مدرسين جُلِبوا من مكة ؛ فأين مشايخ الرياض وأبناؤها ؟

يبدو أن المدرسة في أول أمرها واجهت إعراضًا من أهل نجد وتَوَجُّسًا ، لأنها في ظنهم مدرسة على نظام « الإنجليز» لمجرد كونها منظمة بإدارة ومنهج ؛ كأن تنظيم مثل هذه المدارس هو من خصائص « الإنجليز » ؟!

لكن المجتمع في نجد في ذلك الوقت كان أقرب إلى البداوة ، ولم تكن « الرياض » تُعَدُّ شيئًا أمام حواضر الحجاز « مكة » و « المدينة » والحياةِ الاجتماعية المتطورةِ فيهما ، وكذلك الحياةُ العلمية ، فقد كانت المدارس فيهما مزدهرةً ، وأشهرُها في مكة « المدرسة الصولتية » التي أنشأها الشيخ « رحمة الله » الهندي مؤلف كتاب « إظهار الحق » في مناظرةِ النصارى ، وأُنشئت المدرسة على نفقة الأميرة « صولة

النساء » من أميرات الهند المسلمات ، ويا لها من أميرةٍ جليلة القدر عالية الهمة ، ها هو أثرها هذا العظيم باقٍ إلى اليوم ؛ فرحمها الله وأجزل لها المثوبة ، ورحمَ الله الشيخَ « رحمةَ الله » فقد كان إنشاءُ هذه المدرسة من اقتراحه على الأميرة التي أرادت في البداية أن تبني مسجدًا ، فأشار عليها بأن تجعلها مدرسة ، وكان تأسيس هذه المدرسة عام (١٢٩٢) هـ .

وأنشأ أحد أعيان « مكة » وهو الوجيه « محمد زينل علي رضا » مدرسة « الفلاح » سنة (١٣٤٧) هـ.

وأنشئ في أوائل العهد السعودي « دار التوحيد » بمكة ؛ وهكذا كانت مكةُ عامرةً بالمدارس .

وفي المدينة أنشأ الشيخ « السيد أحمد الفيض آبادي » « دارَ العلوم الشرعية » سنة (١٣٤٠) هـ ؛ بتمويل من أثرياء الهند المسلمين ، وقد

سمعتُ العمَّ الشيخَ « محمد سلطان النمنكاني » وكان أمين المكتبة بهذه المدرسة ، يذكر : أنه كانت تأتي من الهند كلَّ عام سبائكُ الذهب معبأةً في « تَنَكٍ » للصرف على المدرسة ، وعلى أهل المدينة ، فانظر ما أعظم عناية أثرياء الهند المسلمين بتعمير الحرمين بالمدارس .

مدرسة العلوم الشرعية وأمامَهَا مؤسسها الشيخ أحمد الفيض آبادي

وفي المدينة المنورة أيضًا مدرسة قديمة أنشأها الشيخ « محمد عبد الباقي اللكنوي الأنصاري » سنة (١٣٢٤) هـ ، ودَرَسَ فيها ودرَّسَ مشاهيرُ العلماء . وهكذا بينما كانت « مدرسة الأيتام السعودية » هي أولَ مدرسةٍ نظاميةٍ بالرياض كانت بلاد الحرمين مزدهرةً بالمدارس .

ولما استوحَشَ أهلُ نجد من تلك المدرسة كان من البديهي أن ينظروا شزرًا لهؤلاء المدرسين المكيين الذين جاءوا من أجل إقامتها ؛ فعاملوهم بجفاء ، حتى كانوا لا يردون عليهم السلام إذا سلَّمُوا ، وضاق أولئك المدرسون ذرعًا بهذا الجفاء ، ولما جاءهم مندوب الملك يتفقد أحوالهم ، شكا إليه الشيخ « عبد المالك » جفوةَ أهل الرياض وطلب إعادتهم إلى مكة ، فقال مندوب الملك :

ـ أمهلني يا شيخ عبد المالك بضعة أيام وما يصير إلا خير .

وبعد أيام قال له :

ـ الشيوخ حدَّدَ لكم غدًا لزيارته والسلام عليه .

و« الشيوخ » في لغة أهل نجد يعني الملك ، واعترت الهيبةُ من هذا اللقاء جميعَ المدرسين الستةَ ، فالملك عبد العزيز كان أعظمَ شخصيةٍ شهرةً وقوةً في ذلك الوقت .

ودخل المدرسون المكيون على الملك وهو في مجلسه ، وكان قاعةً واسعةً ، والناسُ من أعيان أهل الرياض ورؤسائهم جالسون على

الكراسي في جوانب القاعة ، وصدرها فارغ إلا من كرسي واحد ، كان الملك جالسًا عليه ؛ ولعل ذلك لدواعٍ أَمْنيةٍ ؛ فقد كثرت محاولات الروافض اغتيالَ الملك عبد العزيز ، ومن قبْلُ استُشْهد جدُّه الإمام « عبد العزيز بن محمد بن سعود » سنة (١٢١٨) هـ وهو في المحراب في صلاة الفجر ، وذلك على يد رافضي نجس .

ولما أطلَّ أولُ المدرسين وهو « الشيخ عبد المالك » داخلًا القاعة : قامَ الملكُ عبدُ العزيز ؛ فهبَّ كلُّ من في المجلس قيامًا ، قام أعيانُ أهل الرياض ورؤساؤهم ، وكان منظرًا مهيبًا له دلالاته البليغة ، وظلَّ أهلُ الرياض قيامًا حتى سلَّمَ آخرُ المدرسين على الملك وجلس في الكرسي المُخصَّص له ، وجلس الملكُ فجلس أهلُ الرياض ، ودارت القهوة ، ثم قام الملك وانصرف .

وقام الناس يُسلِّمون على المدرسين ويحيونهم ويرحبون بهم ، فعجب هؤلاء من تَغيُّر الموقف بهذا الشكل السريع ؛ فشرح لهم مندوبُ الملك دلالات هذه الزيارة :

ـ إن الشيوخ أراد أن يقول لأهل الرياض : هؤلاء المدرسون هم ضيوفي وفي وجهي فأكرموهم يا أهل الرياض .

وهذا الذي كان ؛ أصبح المدرسون أينما حلُّوا في الرياض يتسابق الناس للسلام عليهم والترحيب بهم :

ـ عندنا القهوة الليلة ؛ قولوا تم ؟!

هذه أصبحت العبارة المتكررة على ألسنة الناس ، التي يوجهونها للمدرسين عند اللقاء ..

يا له من ملك ؟!

ومن طُرَفِ هذه المرحلة ما رواه لي فضيلة الشيخ « عبد الله بن غديان » رحمه الله عضو الهيئة الدائمة للإفتاء ، وعضو هيئة كبار العلماء ، وأحد فقهاء العصر ؛ أنه كان من طلاب هذه المدرسة قال : وكان والدك يدرِّسُنَا ، ويدخل الفصلَ أحيانًا ومعه « بَرَّادُ » الشاي « الطَّلْخ » أي بدون سكر ، يجفف به حلقَهُ ، ودخل علينا الفصل يومًا وقد حملك على يمينه ، و « براد الشاي » في شماله ، وكنْتَ صغيرًا ، فوضعك على « الطاولة » وبالقرب منك « براد الشاي » فما لبثتَ أن دفعته برجلك فسقط « البَرَّادُ » وانكسَرَ ، وانسكب الشاي على أرض الفصل ؛ فقمنا نبادر بلَمِّ الزجاج الصيني من الأرض ، وفرحنا بهذه المهمة إذ كان فيها شيء من الترويح عن عناء الدروس .

ومن عجائب هذه الفترة أنه بعد سنتين أو أقل بدأ أهل الرياض يُلْحِقُونَ أبناءَهم بالمدرسة لما تأكَّدَ عندهم سلامتُهَا من العلل ، وما تحقِّقُهُ من فوائد عظيمة للطلاب ، وبدأ بعض شيوخ الرياض يلتحقون بها للتدريس .

وكان منهم الشيخ « عبد الكريم الجُهَيْمَان » وكان يومَهَا شيخًا مُتَنَطِّعًا ؛ فَمَرَّ يومًا على الفصل الذي كان يدرِّسُ فيه والدنا « الشيخ

عبد الفتاح » وكان قد أدركه التعب فأوجع ظهره ، فعقد يديه خلف ظهره يستعين بهما على الوقوف ، ومكافحة التعب ؛ فهجم عليه « الجهيمان » بالإنكار أمام الطلاب :

ـ يا شيخ عبد الفتاح لا تعقد يديك على « مَكْوَتْك » أمام التلاميذ هذا أمر لا يليق .

و« مَكْوَتْك » أي دبرك ، ولم يكن الوالد واضعًا يديه على دبره ، إنما على أسفل ظهره ، وذلك شيء لا حرج فيه شرعًا ، ونظر الوالد إلى هذا « الجهيمان » فإذا به يلبس ثوبًا خفيفًا شفافًا يشبه « الشاش » ، وليس تحته سروال ؛ فعورته ظاهرة ، وكانوا يلبسون مثل هذه الثياب في الصيف ، وبعضهم لا يلبس السراويل يقول : إنما هي للنساء .

فقال له الوالد :

ـ أنكرْتَ عليَّ أمرًا لا موجبَ لإنكاره ، وتقف أمام الطلاب وعورتك ظاهرة ؟ أنت شيخ بلا حياء !!؟

ووَلَّى « عبدُ الكريم الجهيمان » الأدبارَ ، لَـمَّا رأي غضبَ الوالد ، ورأى أنه انكشف ؛ والعجيب أن هذا « الجهيمان » المتنطع أصبح بعد ذلك من رموز القومية والتحرر ؛ وأقام في بيروت معظم عمره .

ومن عجائب هذه الفترة أن « عبد العزيز » وقد بلغ سنةً وأخذ يحبو ، تَبِعَ والدَه يومًا عندما خرج من البيت إلى المسجد لصلاة المغرب دون أن يشعر به والده ، وخرج الطفل من باب المنزل وقعد على العتبة ،

وهذا وقتٌ أخبر النبي ﷺ أن الجن يكثرون فيه في الطرقات ، وبعد انقضاء الصلاة وقد بدأ سوادُ الليل يَدْلَهِمُّ ، عَادَ الوالد من المسجد ، ولَمَحَ من بُعْدٍ ابنَه الصغيرَ يلاعب كلبًا أسود على عتبة البيت ؛ فأسرع إليه فَزِعًا ؛ فلما وصل إليه وجده مغميًا عليه ، وقد تَخَشَّبَ جسدُه ؛ فحمله وهو يُعوِّذه بالله من الشياطين ؛ ولكن كان المقدور قد وقع والقضاءُ قد حُمَّ ، ومكث الوالد أيامًا يقرأ على ابنه ويرقيه ، وما من فَرَجٍ ، لبث كلَّ تلك الأيام في غيبوبة لا يبدي أيَّ حراكٍ ، ولولا نَفَسِهِ الضعيفِ ما عرفوا هل هو حي أم ميت ، وسأل الشيخ « عبد المالك » يومًا :

ـ ما صنعتْ رقيتُكَ يا شيخ « عبد الفتاح » .

ـ لا شيء ، ما زال الطفل على حاله .

ـ سآتي ابتداءًا من الليلة وأرقيه .

وتَمَّ ذلك ، ورقاه ثلاثةَ أيام قامَ بعدها « عبد العزيز » وما به من بأس . بعد ذلك حَرَص مَنْ في البيت على مراقبة الطفل حتى لا يخرج مرة أخرى من باب البيت ، فقد كانت الطرقاتُ موحشةً والبيوتُ متباعدةً .

ولما بلغ « عبدُ العزيز » ثلاثَ سنين ألحقه والده بفصلٍ في المدرسة يسمونه « السنة التحضيرية » يساوي ما يُسمى الآن بروضة الأطفال .

وبدأ يقرئه القرآنَ ويُحفِّظه « التحفة » أي : « تحفة الأطفال والغلمان في تجويد القرآن » للشيخ سليمان الجمزوري المصري الأزهري ، وهي منظومة سَلِسَةٌ سهلة مطلعها :

يقولُ راجِي رحمةِ الغفورِ　　　دومًا سليمانُ هو الجَمْزُورِي

وتبلغ أبيات هذه المنظومة (٦١) بيتًا ، تعوَّدَ أهل التجويد على أن تكون أولَ ما يتلقونه في علم التجويد ، ثم يتلقون بعد ذلك « المقدمةَ فيما على قارئِهِ أنْ يَعْلَمَه » لشمس الدين ابن الجزري ، وهي من أقوى المنظومات وأحسنها سبكًا ونظمًا ، مطلعها :

يقولُ راجِي عَفْوِ ربٍّ سامِعِ　　　محمدُ بْنُ الجزريِّ الشافِعِي

الحمدُ للهِ وصَلَّى اللهُ　　　على نبيِّهِ ومصطفَاهُ

وبَعْدُ إنَّ هذه « مُقَدِّمَهْ »　　　فيما على قارئِهِ أنْ يَعْلَمَهْ

وتبلغ أبياتها (مائةً وسبعةً) ؛ وقد حفظتُ كلا النظمين وتلقيتهما عن والدي رحمه الله ، مع تلقِّي القرآن الكريم ؛ واعتنى بي رحمه الله وجزاه عني خيرَ الجزاء ، حتى أتقنتُ الحروفَ واكتسبت الفصاحة في تلاوة كلام الله ، وأكسبني ذلك الفصاحةَ في غيره من أنواع الكلام ، وأكسبني النطقَ الصحيحَ بلغة العرب ، وكان يحرِص حرصًا شديدًا على سلامة لساني من أي عُجْمَةٍ أو لُكْنَةٍ ، ولذلك منعني من التكلم بـ « اللغة الأوزبكية » التي كان ينطق بها في البيت مع الوالدة ؛ لكن

إذا ضبطني أتكلم بها كان يضعني في « الفَلَقَةِ » ويجلدني ؛ هذا عندما بلغْتُ السنَّ التي يُجْلَد فيها الصبي .

وأذكر من حُسْن أساليبه التربوية أنه مع شدة صرامته ، وإذا ضَرَبَ أَوْجَعَ ، لكنه لم يستخدم ذلك في إقرائي القرآنَ ؛ حفظْتُ أو لم أحفظ كان يتابعني بإلحاح ؛ ولكن برقةٍ بالغةٍ ، إذا كان الأمر متعلقًا بالقرآن ، وإذا رآني أثناء ا لدرس وقد غلبني التعب ، أو راوَدَ أجفاني النعاسُ يوقِفُ الدرسَ ويأمرني بالانصراف .

[الحلقة التالية : الإمعان في نجد]